

أثر القرآن الكريم والأحاديث المأثورة عن النبي وآله في مرثي الإمام الحسين للشريف المرتضى

محمد إسماعيل زاده*

الملخص

علامة المفسرين وشيخ الأدباء أبو القاسم علي بن أحمد الحسين (٣٥٥ق/٩٦٦م - ٤٣٦ق/١٠٦٧م) المشهور بالشريف المرتضى، وذو المجدين، والذي لقبه الوزير أبو سعيد محمد بن الحسين بعلم الهدى، كان شاعرا موهوبا فحلا، لكنّه لم يحظ في الشعر بمثل شهرة أخيه الشريف الرضى، ولعل مرجع ذلك إلى حسّاده. كانت مناسبة عاشوراء موقفا يعبر فيه الشريف المرتضى عن أحزانه وآلامه على استشهاد جدّه الإمام الحسين (ع)، فكان يرثيه ويصف مقتله في أسى، ويستنهض الهمم لثأره، مثبتا حقانيته بالقرآن الكريم، والأحاديث المأثورة عن النبي (ص) وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام. وقد بلغ مجموع الأبيات التي قالها في رثاء الإمام الحسين (ع) ٦٩٦ بيتا موزعة على أربع عشرة قصيدة دافع فيها المرتضى عن مبادئ الفكر الشيعي والتزم بالتشيع التزاما حقيقيا. بعد أن تصفح الباحث ديوانه الضخم وجد ذلك الأثر في مرثيه للإمام الحسين (ع) وأصحابه الكرام. ليس المرتضى في مرثيه الحسينية بمجرد شاعر بل هو متكلم، وفقهه، ومحدّث، ومفسّر شيعي فلا غرو أن تزدهم فيها الاقتباسات، والتلميحات، والتضمينات القرآنية، والحديثية التي حاول أن يدرسها راقم هذه السطور.

الكلمات الدليلية: القرآن الكريم، الحديث، أهل البيت، الشعر العربي، الرثاء الحسيني، الشريف المرتضى.

*. خريج جامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات بطهران.

تاريخ القبول: ١٤/٦/١٣٨٩هـ. ش

تاريخ الوصول: ١١/٢/١٣٨٩هـ. ش

المقدمة

أبو القاسم علي بن أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)، ولد في محلة باب المحول من الكرخ ببغداد سنة ٣٥٥ق/٩٦٦م وتوفي سنة ٤٣٦ق/١٠٦٧م فيها. كان والده أبو أحمد الحسين الذي لقبه الملك بهاء الدولة البويهى بالطاهر الأوحى ذى المناقب يتولى نقابة الطالبين وإمارة الحج والنظر في المظالم. ظل الحسين سيديا عظيما سياسيا ذا مكانة مهيبه، وكانت هيئته أشد من هيبة الخلفاء. (مركز البحوث، ١٩٩٧م: ١٠) حتى فقد بصره وتوفي ببغداد سنة ٤٠٠ق وكان لفقده أثر بالغ على المرتضى وأخيه الرضى فرثاه المرتضى بمرثية تبلغ ٤٢ بيتا وقال فيها:

ولا تنتظروا منى ارتياحا فقد ذهب ابن موسى بارتياحي

(المرتضى، ج ١، ١٩٩٧م: ٢٨٠)

عنت بتربيته وتربية أخيه الشريف الرضى أمهما فاطمة بنت أبي محمد الحسن الملقب بالناصر الصغير عناية بالغة خصوصا عندما أحست بعظمة المسؤولية المطروحة على عاتقها في غياب والدهما الذي صودرت أملاكه ثم اعتقل في قلعة بشيراز سنة ٣٦٩ق/٩٧٩م بحكم جائر من عضد الدولة البويهى؛ فقصدت هذه السيدة الجليلة العلوية النسب شيخ الطائفة الإمامية وزعيمها الفقيه المتكلم محمد بن محمد بن النعمان العكبرى الملقب بالشيخ المفيد ملتزمة منه أن يتولى تعليم ولديه الشريفين. (الخوانسارى، ج ٤، ١٩٩١م: ٢٨٥) درس الشريف المرتضى العربية على ابن نباتة السعدى، والفقه والأصول على الشيخ المفيد، والحديث على ابن بابويه القمى، والأدب على المرزبانى الكاتب. (محي الدين، ١٣٧٣ش: ٨٩)

اشتهر سيدنا الأجل باللقاب منها: السيد، المرتضى، ذى المجددين، علامة المفسرين، شيخ الأدباء، ولقبه الوزير أبو سعيد محمد بن الحسين بعلم الهدى، كما كان يلقب بالثمانين «لأنه أحرز من كل شيء ثمانين حتى أنه كان عمره ثمانين سنة وثمانية أشهر». (الخوانسارى، ج ٤، ١٩٩١م: ٢٨٦)



كان المرتضى نحيف الجسم، أبيض اللون، حسن الصورة سمحا جوادا، ميالا إلى الزهد، ولم يكن متطرّفا في مذهبه، وآرائه الفقهية، وما كان يعبأ بالأخبار الضعيفة، ولكنه كان يميل إلى الأدلة العقلية مع ما يتفق مع الكتاب والسنة. لم يكن يطمح إلى الخلافة والمناصب الحكومية، نلقاه مصروفا عن هذا المطمع، مشغولا بالعلم والدرس والتأليف، بينما كان أخوه الشريف الرضى، طموحا إلى الخلافة، ويقال إن «الكاتب المشهور أبو إسحاق الصابى يطعمه فيها.» (الفاخوري، ج ١، ١٩٩٥م: ٨٣٣) كان المرتضى ثريا يجرى على تلامذته رزقا و«كان قد وقف قرية على كاغد الفقهاء.» (الخوانسارى، ج ٤، ١٩٩١م: ٢٨٦) وصفه أعداؤه بصفات ليست فيه كالبلخل، والترفع ومن البدهى لمن يتحلى بهذه الصفات الطيبة أن يكون له حساد، وخصوم، وكل ذى نعمة محسود. ووصفه تلميذه الشيخ الطوسى بقوله: «متوحد في علوم كثيرة، مجمع على فضله، مقدم في علوم كثيرة، مثل: علم الكلام، والفقه، وأصول الفقه، والأدب، والنحو، والشعر، ومعانى الشعر، واللغة، وغير ذلك.» (مركز البحوث، ١٩٩٧م: ١٥) وهذا يغنيننا عن التطويل في مكاتبه العلمية. الشريف المرتضى شاعر موهوب فحل لكنّه: «لم يحظ في الشعر بمثل شهرة أخيه الشريف الرضى ولعل مرجع ذلك إلى حساده.»

إنّ الشريف المرتضى اتخذ من داره الواسعة مدرسة سماها «دار العلم» وشغف بجمع الكتب، وكانت خزائنه تضم ثمانين ألف مجلد، على ما أحصاه صديقه أبو القاسم التنوخى. (الخوانسارى، ج ٤، ١٩٩١م: ٢٨٦) للشريف المرتضى مؤلفات كثيرة في الفقه، والأصول، والكلام، والتفسير، والأدب، والشعر، ضاع كثير منها وأشهر ما بقى بين أيدينا:

١. أمالى المرتضى وأصل اسمه «غررالفوائد، ودررالقلائد». ٢. إنقاذ البشر من القضاء والقدر.

٣. كتاب الطّيف والخيال أو طيف الخيال. ٤. تفسير قصيدة السيد الحميرى المعروفة بالقصيدة المذهّبة. ٥. تنزيه الأنبياء والأئمة أو كتاب التنزيه. ٦. الشافى فى الإمامة. ٧. الذريعة فى أصول الفقه. ٨. الشّهاب فى الشيب والشباب. ٩. مسائل الناصريات أو المسائل الناصرية فى الفقه. ١٠. المسائل الموصلية. ١١. المسائل الطرابلسية. ١٢. ديوان

الشريف المرتضى، وهو ديوان شعر يزيد على عشرين ألف بيت. ١٣. تفسير سورة الحمد ومائة وخمس وعشرون آية من سورة البقرة. (الأمين، ج ٨، ١٤٠٣ق: ٢١٩)

مراثى الإمام الحسين عليه السلام للشريف المرتضى

كانت مناسبة عاشوراء موقفاً يعبر فيه الشريف المرتضى عن أحزانه، وآلامه على استشهاد جدّه الإمام الحسين (ع)، فكان يرثيه ويصف مقتله فى أسى، ويستنهض الهمم لثأره، مثبتاً حقانته بالقرآن الكريم، والحديث الشريف. وقد بلغ مجموع الأبيات التى قالها فى رثاء الإمام الحسين (ع) ٦٩٦ بيتاً موزعة على أربع عشرة قصيدة. دافع فيها المرتضى عن مبادئ الفكر الشيعى، والتزم بالتشيع التزاماً حقيقياً.

يكون الوقوف الحزين على أرض الطف، والديار المقفرات لآل البيت (ع) والسؤال عن سكانها الصّوم القوم الذين ذبحوا على شواطئ الفرات ظامئين، الإكتار من الحزن الطويل والبكاء الحار، وعدم الاستماع إلى العذال، استعلان الحداد، الشكاية من الدهر الذى سقى الشيعة آلاماً عريضة بمقتل الإمام الحسين (ع)، ذكر فضائل أهل البيت (ع) وسوء أفعال الأمويين من مكر، وخذعة، وغضب، وغدر، وسبى بحقهم، التعرض للعباسيين الذين ركبوا أعواد الخلافة ظلماً، رفض القرابة بين العلويين والأمويين وصبّ الغضب عليهم، توبيخ الكوفيين بتضييع العهد، تأكيد تمسكه بموالاتة أهل البيت (ع) والدفاع عن حقوقهم بكلّ ما لديه من مال ودم وشعر، شفاعاة أهل البيت (ع)، قضية الموعود المنتظر المنتقم (عج)، وأخيراً طلب المطر لقبور آل البيت (ع)، من أهمّ الموضوعات التى تناولتها هذه المراثى.

أثر القرآن الكريم فى المراثى الحسينية للمرتضى

شعر المرتضى كحياته إسلامى؛ إنه يحافظ على شرف المعنى الذى أوصى به النقاد القدماء، فقد مدح بكريم الخصال، وافتخر بأرومته، وهمته، ولم يخرج فى الوصف، والغزل عن حدود الشريعة الغراء.



بما أن المرتضى كما أسلفنا نشأ في أحضان أسرة شيعية عريقة، وعاش في بيئة دينية، وكان منذ طفولته يتلو القرآن ويحفظه، ويتابع علوم الشريعة الإسلامية، فليس بأمر غريب أن تظهر على شعره دلالات واضحة، تشير إلى الأثر الذي تركه القرآن، وأحاديث أهل البيت (ع) في نفسه.

وبعد أن تصفح الباحث ديوانه الضخم، وجد ذلك الأثر في مراثيه للإمام الحسين (ع)، وأصحابه الكرام. ليس المرتضى في مراثيه الحسينية بمجرد شاعر، بل هو فقيه محدث متكلم مفسر شيعي، فلا غرو أن تزدهم الاقتباسات، والتلميحات، والتضمينات القرآنية، والحديثية في هذه المراثي.

أشكال التأثر بالآيات والأحاديث في مراثي الإمام الحسين (ع) للمرتضى

بالنظر إلى مراثي الإمام الحسين (ع) للمرتضى، نرى أن تأثر الشاعر بالآيات، والأحاديث يتمثل كثيرا في الأشكال التالية:
أولا، الاقتباس:

وهو في اللغة مصدر اقتبس النار، إذا أخذها شعلة، وفي المصطلح البلاغي عبارة عن تضمين الكلام «شيئا من القرآن أو الحديث لا على أنه منه». (الخطيب القزويني، لاتا: ٤٢٢) ويشترط فيه: «بألا يقال فيه قال الله تعالى ونحوه». (السيوطي، لاتا، ج ١: ٣٨٦) وهو ضربان: ما لم ينقل فيه المقتبس عن معناه الأصلي، وما خلافه. يقتبس الشاعر ما يحتاج إليه من الآيات، والأحاديث، فيضمّن كلامه لفظة، أو لفظتين، أو أكثر من ألفاظ القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، غير منوّى أنها قرآن، أو حديث ولا بأس به أن يغير تغييرا يسيرا للوزن وغيره. على سبيل المثال عبارة «أمّ القرى» وهي كنية مكة المكرمة في قوله:

كأنّه لم يفرّكم ضلّلا عن الهدى القصد بأمّ القرى

فقد اقتبست من قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الأنعام: ٩٢)

ولفظه «المعصرات» بمعنى السحاب تعتمر بالمطر، في الشطر الثاني من البيت

التالي:

تطوى وتحمى عنهم محوا بهطل المعصرات
مقتبسة من قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ (النبا: ١٤)
وأما «الصراط» بمعنى الجسر في قوله:

ولاغفر الإله لكم ذنوبا ولاجزتم هنا لكم الصراط
فقد اقتبست مما روى في الأحاديث فيه من مثل الحديث النبوي الشريف: «أثبتكم
على الصراط أشدكم حبا لأهل بيتي.» (القندوزي، ١٤٢٢ق، ج ٢: ٧٠) والحديث الشريف:
«لا يجوز أحد الصراط إلا من كتب له علي.» (الأنطاكي، ١٤١٧ق: ٢٩٣)
ثانيا، التلميح:

وهو في اللغة مصدر لمح إلى الشيء، إذا نظر إليه بنظر خفيف وفي الاصطلاح: «أن
يشار إلى قصة أو شعر من غير ذكره.» (الخطيب القزويني، لاتا: ٤٢٧) وعرفه الخورى عواد
بقوله: «وفي الاصطلاح أن يشير الناظم في بيته إلى أمر مشهور من قصة، أو بيت شعر،
أو مثل.» (عواد، ٢٠٠٠م: ١٨٥) وهكذا اتضح الفرق بين الفنين: الاقتباس والتلميح، وهو
أن الاقتباس يشترط فيه أن يوتى باللفظة، أو العبارة القرآنية بالضبط (عينها) أو بتغيير
يسير، ولكنه في التلميح إنما يشار إلى مفاهيم قرآنية، بكلمات الشاعر إشارة لطيفة.
(همائي، ١٣٧٧ش: ٣٨٦) على سبيل المثال يلمح المرتضى في قوله:

مستشعرين لأطراف الرماح ومن حدّ الظبا أدرعا من نسج داود
بعبارة «نسج داود» إلى قصة داود (ع) الذي علمه الله تعالى صناعة السرد، أي نسج
الدروع، وأشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ
فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٨٠) وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ
أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ (السبا: ١١ و ١٠)
وفي قوله:

يا بني الوحي والرّسالة والتطـ هير من ربهم لهم إكبارا
يلمّح الشاعر بقوله: بني الوحي وبني التطهير، إلى آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣) وإلى ما جرى في بيت أمّ



سلمة، حيث دعا النبي (ص) عليا (ع) وفاطمة (س) وحسنا والحسين (ع)، فجلّهم بكساء ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.» قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟ قال النبي (ص): أنت على مكانك. (القندوزي، ١٤٢٢ق، ج ١: ٣٢٠)

الاقْتِباس من المفردات والتراكيب القرآنية
عبارة «صبرا جميلا» في قوله:

تقولون لي صبرا جميلا وليس لي على الصبر إلا حسرة وتلهّف
(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٣١٨)
فقد اقتبسها الشاعر من قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ (المعارج: ٥) وقال في أماليه في وصف الصبر بالجمال: إنما يكون جميلا، إذا قصد به وجه الله، وفعل للوجه الذي وجب، وقد قيل: إنه أراد صبرا لا شكوى فيه ولا جزع. (المرتضى، ١٤٢٨ق: ١٢٥)
لفظة «المسومة» في قوله:

أنحو بنى رسول الله فيكم تقودون المسومة السلاطا
(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٢١٦)
اقتبسها الشاعر بنفس المعنى القرآني من قوله تعالى: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ (آل عمران: ١٤)
عبارة «جنات عدن» في قوله:

فإن ترهم في القاع نثرا فشملمهم بجنات عدن جامع متألف
(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٣١٩)
مقتبسة من القرآن الكريم. فقد استعملت العبارة في القرآن الكريم ١١ مرة، مثل قوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (البينة: ٨)
لفظة «غدا» التي وردت في قوله:

ليس عذر لكم فيقبله الله غدا يوم يقبل الأعدارا
(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٢٢)

وفي قوله:

يا آل أحمد والذّي من غدا بحبّهم نجاتي

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ١: ٢٠٩)

كناية عن يوم القيامة، وهي قد اقتبست بمعناها القرآني من قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرُ﴾ (القمر: ٢٦) والجدير بالذكر أنّ حبّ آل محمد، ومعرفتهم، نجاة من النَّار، وهذا المعنى قد ورد في كثير من الأحاديث المأثورة عن النبي (ص) من مثل قوله: «معرفة آل محمد براءة من النَّار.» (القندوزي، ١٤٢٢ق، ج ٣: ١٤١)

لفظة «بيت» وهي كناية عن الكعبة المعظمة، وردت في قوله:

لكم أم لهم بيت بناه على التّقى وبيت له ذاك السّتار المسجّف

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٣٢١)

مقتبسة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ (آل عمران: ٩٦)

لفظة «الكوثر» التي وردت في قوله:

حالاتم بالطّف قوما عن الـ ماء فحلّتم به الكوثر

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ١٥)

فقد اقتبسها الشاعر من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ﴾ (الكوثر: ١) والكوثر هذا اختلف في تفسيره، فقيل: هو نهر في الجنة، وقيل: هو حوض النبي (ص) الذي يكثر الناس عليه يوم القيامة. (الطبرسي، ١٩٩٢م، ج ١٠-٩: ٧٠٣) وفي البيت إشارة إلى ما روى عن النبيّ (ص) حيث قال: أنت يا عليّ! على حوضي، تذود عنه المنافقين. (القندوزي، ١٤٢٢ق، ج ١: ٣٩٥)

عبارة «آل ياسين» التي وردت في:

آل ياسين ومن فضـ لهم أعياء اللّيبيا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ١: ٦١)

قد اقتبست من قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾ (الصافات: ١٣٠) في قراءة نافع وابن عامر ويعقوب. (البيضاوي، ٢٠٠٣م، ج ٢: ٣٠١) وقد نقل جماعة من المفسرين عن



ابن عباس: «أنّ المراد بذلك سلام على آل محمد.» (القندوزي، ١٤٢٢ق، ج ٢: ٤٣٥) وعن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه عن آبائه عن عليّ (ع) في قوله تعالى، سلام على آل ياسين، قال: ياسين محمد، ونحن آل ياسين. (الكليني، ١٣٦٥ش، ج ١: ٢١٦) عبارة «حطب النار» في قوله:

فهو وإن فاز بها عاجلا من حطب النار ولا يدرى

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ١٢٩)

استعملها الشاعر مقتبسا من قوله تعالى: ﴿فَكَانُوا لِحَبْنِم حَطْبًا﴾ (الجن: ١٥)

عبارة «كنتم سرايا» التي قد وردت في:

قدسبرناكم فكنتم سرايا وخبرناكم فكنتم خبارا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٢٠)

كناية عن المنظر الخادع الذي لا غناء فيه. (أبوسعدي، ١٩٨٧: ١٢٤) وقد اقتبست من قوله

تعالى: ﴿وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (النبا: ٢٠) وقد استخدمت الكناية هذه، في قوله

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً﴾ (النور: ٣٩)

عبارة «حاش لله» في قوله:

حاش لله ما قطعتم فتيلًا لا ولاصرتم بذاك مصارا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٢٢)

فقد اقتبست من قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ (يوسف: ٣١)

«الذكر» بمعنى القرآن الكريم، في قوله:

واطرحوا النهج ولم يحفلوا بما لكم في محكم الذكر

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ١٢٨)

قد ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤)

وفى البيت هذا تلميح واضح إلى ما ورد في القرآن الكريم، من الآيات الكريمة بحق

أهل البيت (ع) من مثل آية التطهير، وآية المباهلة، وآية المودة، أو القربى، وآية أولى

الأمر، وآية أولى الأرحام، وغيرها من الآيات.

لفظة «مدرارا» بمعنى كثير الدرّ، في قوله:

أناظام وليس أنقع أن أبص — ر في النَّاسِ دِيْمَةَ مَدْرَارَا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٢٥)

لعلها مقتبسة من قوله تعالى: ﴿تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ (هود: ٥٢)

الإشارة إلى مفاهيم قرآنية

هذه الآيات:

لقى الله وظنّ النّ — ساس أن لاقى شعوبا
وهو في الفردوس لَمَّا — قيل قد حلّ الجبوا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ١: ٦٢)

أتتم على الله نزول وإن — خال أناس أنكم في الثرى

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ١٦)

تضمن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (الكهف: ١٠٧) ولفظة «الفردوس» التي وردت في البيت الأخير مقتبسة من قوله تعالى المذكور كما تشاهدون.

«هشيم بيد العاصفات» التعبير كناية عن الهلاك، والتفرقة، وقد وردت هذه الكناية في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ﴾ (الكهف: ٤٥) واستعمل المرتضى هذه الكناية القرآنية في مراثيه الحسينية، حيث يقول:

وأنتم بمجتاز السيول كأنكم — هشيم بأيدى العاصفات مطير

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٧٧)

فكأنهنّ — هشائم بمرور هوج العاصفات

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ١: ٢٠٧)

والجدير بالذكر أن لفظة «العاصفات»، قد اقتبست من قوله تعالى: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ



عَصْفًا (المرسلات: ٢)

أما قوله:

وكلّ كريم لا يلمّ بريئة فإن سيم قول الفحش قال جميلا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٣: ٥٣)

تضمن لمعنى قوله تعالى فى سورة القصص: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾

(القصص: ٥٥) وفى سورة الفرقان حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان:

٧٢)

قوله:

فللخير وإن آثرتم الخير موضع وللشرّ إن أحببتم الشرّ موقف

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٣٢٣)

تضمن لمعنى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ (البقرة: ١٨٤)

عبارة «حسدتم الفضل» فى:

حسدتم الفضل لم يحزره غيركم والناس ما بين محروم ومحسود

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ١: ٤٠٢)

وعبارة «يا حاسديهم فضلمهم» فى قوله:

فيا حاسديهم فضلمهم وهو باهر وكم حسد الأقسام فضلا وأسرفوا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٣٢٠)

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النساء:

٥٤) يقول صاحب المجمع: المراد بالناس النبى، وآله، والمراد بالفضل فيه النبوة، وفى آله

الإمامة. (الطبرسى، ١٩٩٢م، ج ٤-٣: ٧٩) وأخرج ابن المغازلى عن جابر الجعفى عن محمد

الباقر فى هذه الآية، قال: نحن الناس المحسودون. (القندوزى، ١٤٢٢ق، ج ١: ٣٦٢)

وأما قوله:

إذا ما تنوا تلك الوسائد ميلا أديرت عليهم فى الزّجاجة قرقف

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٣١٩)

مأخوذ من القرآن الكريم. وقد جاء هذا المعنى، في كثير من آي القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحِنَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ مُتَكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ (ص: ٥١ و ٥٠)

في قوله:

إذا لم تكونوا فالحياة منيةً ولاخير فيها والبقاء فناء

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج: ١، ٢٧)

عبارة «والبقاء فناء» تذكّرنا بقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (الرحمن: ٢٦)

المصراع الأول من قوله:

ومن كان يسقى في الجنان كرامة فلا مسه من ذى السحاب ماء

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج: ١، ٢٧)

متأثر إلى حدّ كثير بآيات من القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ (الإنسان: ١٧) و قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (الإنسان: ٢١)

الشاعر في قوله:

إنّ نور الإسلام ثاو وما اسطا ع رجال أن يكسفوا الأنوارا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج: ٢، ٢٢)

متأثر إلى حدّ بعيد بالقرآن الكريم، لأنّ الإسلام على أساس قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ (الزمر: ٢٢) والكافرون لا يقدرّون على إطفائه، لأنّ الله تعالى يابى ويقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢)

تشبيهه السماء بالسقف قد ورد في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾ (الأنبياء: ٣٢) واستعمله الشاعر في قوله:

إنكم خير من تكون له الخضراء سقفا والعاصفات إزارا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج: ٢، ٢٤)



وكون الشيء هباءً مطارا، أو منتورا، أو منبثا كناية عن موته، وزواله، وقد وردت هذه الكناية في التنزيل العزيز حيث قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٣) واستخدمها الشاعر بنفس المعنى في قوله:

وإذا ما شفعتم من ذنوب الـ خلق طرا كانت هباءً مطارا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٢٤)

وأما في قوله «صلى عليكم ربكم» في الشطر الأول من البيت التالي:

صلى عليكم ربكم وارتوت قبوركم من مسبل منجم

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٣: ٣٦٨)

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ (الأحزاب: ٥٦) لأنه لما نزلت هذه الآية الكريمة، سألوا رسول الله (ص) عن كيفية الصلاة عليه فقال (ص): «قولوا صلّ على محمد وآل محمد ولا تصلّوا الصلاة البتراء.» فقالوا وما الصلاة البتراء؟

قال: «تقولون اللهم صلّ على محمد.» (القندوزي، ١٤٢٢م، ج ٢: ٤-٤٣٣)

ربما استلهم الشاعر في الشطر الثاني:

لحاله قوما لم يجازوا جميلكم لأنكم أحسنتم وأسأؤوا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ١: ٢٧)

وفي قوله:

قد أسأؤوا والله يخزي سريعا من إلى محسن صنيعا أساء

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ١: ٢٢)

من قوله تعالى: ﴿وَيَذُرُّونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ (القصص: ٥٤؛ والرعد: ٢٢)

ذوق الردى والموت، تركيب استعاري وقد ورد في آي القرآن الكريم، من مثل قوله

تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (الأنبياء: ٣٥) واستعمله المرتضى في قوله:

ذاقوا الردى من بعد ما ذاقوا أمثاله بالبيض والسم

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ١٢٧)

وأما قوله:

وراحوا كما شاءت لهم أريحيّة ودوحة عزّ فرعها متعطف

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٣١٩)

تضمن لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: ٢٤)

الشرط الثاني من قوله:

وراحوا كما شاءت لهم أريحيّة سكران لا من نشوة الخمر

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ١٢٦)

مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾ (الحج: ٢) وفي قوله:

لو لم يكيدهم بها كيدة لانقلبوا بالخزي والمرغم

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٣: ٣٦٦)

إشارة واضحة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (الطارق: ١٥) أسلوب الكلام في قوله:

فظاهرها بادي السريرة فاغر وباطنها حاوي الدخيلة أجوف

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٣٢٤)

قريب من أسلوب القرآن الكريم في سورة الحديد حيث قال الله تعالى: ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد: ١٣)

الأحاديث المأثورة عن النبي (ص) وآله الطاهرين، في مرآة الإمام الحسين (ع)

للمرتضى

في قوله:

فيا أنجما يهدى الله نورها وإن حال عنها بالغبي غباء

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ١: ٢٦)

استعمل عبارة «فيا أنجما» مشبها أهل البيت (ع) بنجوم السماء متأثرا، بما ورد في أحاديث أهل البيت (ع) بهذا المضمون من مثل قول الإمام الرضا: «الإمام النجم الهادي



أثر القرآن الكريم والأحاديث المأثورة عن النبي و...

فى غياهب الدّجى والإمام الماء العذب على الظماء والدالّ على الهدى. «(قيومى اصفهانى، ١٣٧٩ش: ٢٥٤) وقول الإمام على (ع): «ألا إنّ مثل آل محمد كمثل نجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجم.» (نهج البلاغة، الخطبة: ١٠٠)

وفى الشطر الثانى تضمين لقوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢)

فى قوله:

فإن يك قوم وصلة لجهنم فأنتم إلى خلد الجنانى رشاء

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج: ١، ٢٦)

فى المصراع الأول إشارة إلى ما جاء فى قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (هود: ٩٨) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (إبراهيم: ٢٨) ونجد معنى البيت فى قول الإمام على (ع) حيث قال: «ما بال أقوام غيروا سنة رسول الله وعدلوا عن وصيّه لايتخوفون أن ينزل بهم العذاب، ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلّوا قومهم دار البوار جهنم، نحن النعمة التى أنعم بها الله على عباده وبنا يفوز من فاز يوم القيامة.» (الكلينى، ١٣٦٥ش، ج: ١، ٢١٧)

فى قوله:

أنتم أمنى لدى الحشـ ر إذا كنت نخيبا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج: ١، ٦٢)

إشارة الى الحديث النبوى الشريف: «أهل بيتى أمان لأهل الأرض. أخرج أبويعلى عن سلمة بن الأكوع: النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لأمتى.» (القندوزى، ١٤٢٢ق، ج: ٢، ٤٧٤) والولاية لآل محمد أمان من العذاب. (القندوزى، ١٤٢٢ق، ج: ٢، ٣٣٢)

قوله:

لم يكونوا زينا لقومهم الغرّ ولكنّ شينا طويلا وعارا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج: ٢، ٢١)

إشارة واضحة إلى قول الإمام الصادق (ع): كونوا لنا زينا ولا تكونوا علينا شينا.
(العاملی، ١٤٠٩ق، ج ١٥: ٢٤٥)
قوله:

قد جعل الله إليكم كما علمتم المبعث والمحشرا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ١٦)

إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: «يا عليّ! أنت قسيم النار والجنة في يوم القيامة، تقول للنار: هذا لي وهذا لك.» (القندوزي، ١٤٢٢ق، ج ٢: ٤٠٣)
قوله:

وتيقنوا أنّ الحيا ة مع المذلة كالممات

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ١: ٢٠٩)

إشارة إلى قول الإمام الحسين (ع) المشهور: «هيهات منا الذّلة؛ وشعره: الموت خير من ركوب العار.» (دشتي، ١٣٨١ش: ٥٥٤)
قوله:

مهابط الأملاك أبياتهم ومستقرّ المنزل المحكم

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٣: ٣٦٧)

إشارة إلى ما روى عن أهل البيت عليهم السلام من مثل قول الإمام علي (ع): إنا شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وبيت الرحمة. (الكليني، ١٩٩٧م، ج ١: ٢٢١)

عبارة «حجج الله» في قوله:

يا حجج الله على خلقه ومن بهم أبصر من أبصر

(المرتضى، ١٩٩٧، ج ٢: ١٦)

مأخوذة مما روى من أهل البيت عليهم السلام من مثل قولهم: نحن حجج الله في خلقه ونحن أئمة المسلمين وحجج الله على العالمين وسادة المؤمنين.
تشبيه أهل البيت عليهم السلام بالشمس، والبدر موضوع قد ورد في أحاديثهم عليهم



أثر القرآن الكريم والأحاديث المأثورة عن النبي و...

السلام، من مثل قول الإمام الرضا (ع): «الإمام كالشمس الطالعة المجللة نورها للعالم والإمام البدر المنير.» (قيومي اصفهاني، ١٣٧٩ش: ٢٥٤) واستعمله المرتضى في شعره:

فلقد طوين شمسنا وبدورنا في المشكلات

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ١: ٢١٣)

عبارة «في الجفون قذاة» التي وردت في:

وفي الجفون قذاة غير زائلة وفي الصلوع غرام غير مفقود

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ١: ٣٩٩)

كناية عن الألم والحزن، وسبب الإزعاج للإنسان. (أبوسعدي، ١٩٨٧م: ١٨٢) وهذا ما

أشار إليه الإمام علي (ع) في قوله: «صبرت وفي العين قذى.» (نهج البلاغة، الخطبة ٣) في قوله:

أفي الحقّ أنا مخرجوكم إلى الهدى وأنتم بلا نهج إلى الحقّ يعرف؟

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٣٢٢)

يتّضح أثر قول الإمام علي (ع): «بنا اهتديتم في الظلماء وتسنّمتم إلى ذروة العلياء...»

(نهج البلاغة، الخطبة ٤) وقوله (ع): «وأنتم معشر العرب على شرّ دين وفي شرّ دار...» (نهج البلاغة، الخطبة ٢٦)

في قوله:

أحواضهم مورودة فعدوّهم يحلّ وأصحاب الولاية ترشف

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٣١٩)

إشارة إلى الحديث النبوي الشريف حيث قال (ص): يا عليّ! أنت وشيعتك تردون

على الحوض رواء مرضيين مبيضة وجوهكم وإن أعداءكم يردون على الحوض ظماء مقمحين. (الأنطaki، ١٤١٧ق: ٣٨٥)

وأما في البيتين التاليين:

فإن يك من ذنب فقولوا لمن شفّعكم في العفو أن يغفرا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ١٦)

وإذا ما شفعتهم من ذنوب الـ خلق طراً كانت هباءً مطارا

(المرتضى، ١٩٩٧م، ج ٢: ٢٤)

إشارة واضحة إلى شفاعته آل محمد (ص) و قولهم من مثل: شفاعته محمد وشفاعتنا تحبط بذنوبكم.

النتيجة

وأخيرا يمكننا القول ممّا تقدّم ذكره: إنّ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة المأثورة عن النبي (ص) وآله الطاهرين، أثرا في المراثي الحسينية للشريف المرتضى تأثيرا واضحا بيّنا، معترفين بأنّ التلميح والاقْتِباس، لا يكفیان للتدليل على أثر القرآن أو الحديث في مراثيه، لأنّ الشاعر أو الأديب قد يتأثر بالقرآن أو الحديث دون أن يظهر ذلك في نظمه أو نثره، ولا أبالغ في الكلام أن أقول بأنّ المرتضى (رحمه الله تعالى) تأثر بالقرآن والحديث في كلّ بيت من أبيات المراثي الحسينية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

أبوسعد، أحمد. ١٩٨٧م. معجم التراكيب والعبارات الاصطلاحية العربية. الطبعة الأولى. بيروت: دار العلم للملايين.

الأمين، محسن. ١٤٠٣ق. أعيان الشيعة. حقّقه حسن الأمين. بيروت: دار التعارف للمطبوعات.

الأنطاكي، محمد مرعي الأمين. ١٤١٧ق. لماذا اخترت مذهب الشيعة مذهب أهل البيت. الطبعة الأولى. قم: مكتب الإعلام الإسلامي.

البيضاوي، عبدالله بن عمر. ٢٠٠٣م. تفسير البيضاوي. الطبعة الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية.

الخطيب القزويني، جلال الدّين محمد بن عبدالرحمن. لاتا. التلخيص في علوم البلاغة. شرحه عبدالرحمن البرقوقي. القاهرة: المكتبة التجارية بمصر.

الخوانساري، الميرزا محمد باقر. ١٩٩١م. روضات الجنّات في أحوال العلماء والسّادات. الطبعة الأولى. طهران: الدار الإسلامية.

أثر القرآن الكريم والأحاديث المأثورة عن النبي و...

- دشتي، محمد. ١٣٨١ش. فرهنگ سخنان امام حسين (ع). الطبعة الثالثة. قم: انتشارات ظهور.
- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن. لاتا. الإتيقان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. قم: منشورات الشريف الرضي.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن. ١٩٩٢م. مجمع البيان في تفسير القرآن. تصحيح السيد هاشم الرسولي المحلاتي. الطبعة الأولى. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- العاملي، الشيخ محمد بن الحسن. ١٤٠٩ق. وسائل الشيعة. قم: مؤسسة آل البيت.
- عواد، الخوري بولس. ٢٠٠٠م. العقد البديع في فنّ البديع. الطبعة الأولى. بيروت: دار المواسم.
- الفاخوري، حنا. ١٩٩٥م. الجامع في تاريخ الأدب العربي. الطبعة الثانية. بيروت: دار الجيل.
- القندوزي الحنفي، سليمان بن إبراهيم. ١٤٢٢ق. ينابيع المودة لذوى القربى. تحقيق سيد علي جمال أشرف الحسيني. الطبعة الثانية. قم: دار الأسوة.
- قيومي اصفهاني، جواد. ١٣٧٩ش. صحيفة الرضا. الطبعة الثالثة. قم: دفتر انتشارات اسلامي وابسته به جامعه مدرّسين حوزه علميه قم.
- الكليني، محمد بن يعقوب. ١٣٦٥ش. الكافي. الطبعة الثالثة والعشرون. طهران: دار الكتب الإسلامية.
- محي الدين، عبدالرزاق. ١٣٧٣ش. أدب المرتضى. ترجمه جواد محدثي. الطبعة الأولى. تهران: انتشارات امير كبير.
- المرتضى، أبو القاسم علي بن أبي أحمد. ١٩٩٧م. ديوان الشريف المرتضى. شرح محمد التونجي. الطبعة الأولى. بيروت: دار الجيل.
- _____ . ١٤٢٨ق. أمالي المرتضى. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الثانية. قم: ذوى القربى.
- مركز البحوث والدراسات العليا. ١٩٩٧م. مسائل الناصريات. للشريف المرتضى. طهران: رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية.
- همائي، جلال الدين. ١٣٧٧ش. فنون بلاغت وصناعات ادبي. الطبعة الرابعة عشرة. تهران: مؤسسه نشر هما.